هامش

"في الوطن نستطيع أن نحقق كل مالا نستطيعه في غيره" ... كانت هذه الجملة الفلسفية هي فاصل الدروس الذي تتحفنا بها الأستاذة عائشة،درستني هذه المعلمة خمس سنوات، لكنها خلال هذه المدة الطويلة لم تتخلص من جملتها الاعتراضية تلك، أو حتى تعدلها بشكل يمكن طالبة الصف الأول الإعدادي من فهمها..

أول مرة اليوم أقرر أن أكتبها، لكن عنوان الدرس يملأ صدر الصفحة، وعناصره تنحشر في أنحاء الصفحة، بقي مكان الهامش فقط مفرغاً لكتابة المطلوب منا في الواجب، أقنع نفسي بأن أحفظ المطلوب ليتسنى لي كتابة عبارة الأستاذة عائشة في ذلك الفراغ البسيط، تدركني الأستاذة وأنا أحشر حكمتها في الحياة في ذلك الجزء المهمل من الصفحة، تشهق بشكل مخيف..وتنظر إلي بذهول.. أحتسي قهوتي اللحظة وأبتسم وأنا أتذكر تفاصيل شهقتها، قالت لي يومها بصوتها الناعم والغاضب في آن واحد: ..عندما تحشرين وطنك في هذه الزاوية الضيقة ستنحشرين أنت معه في ذات الزاوية...

يومها رددت عليها وقلت بحماقة مراهقة: وهل تسمين هذه الحكمة وطن!! ابتسمت بحزن وأردفت: هل تتذكرين في أي صف بدأت أرددها على مسامعكن؟ أتصنع البلاهة وأجيب: من الصف الأول الإعدادي...إلا أني إلى اللحظة لا أفهمها.. تبتسم بحزن: في الأمس كان من حقك ألا تفهميها ...ولكن كان عليك أن تحفظيها، أما اليوم فمن العار أن لا تفهميها...لسبب بسيط وهو أنك صرت تفهمين معنى وطن..ولذا عليك أن تحترميه حتى عندما يتجسد في الحروف.

أحك رأسي وكأني أود أن أخفي ملامح صوتها الآتي من الذاكرة، أحتسي كوب القهوة...إنه يشبه مذاق هذا الوطن، حتى وإن أضفت أكواماً من السكر يبقى مراً! حتى وإن أضفنا له كل أنواع المحسنات...يبقى غامقاً..ترى هل هو خطأه؟ أم خطأي يوم حشرته في الهامش!!

يرن جرس الباب، لقد عاد عبد القادر، أتذكر الأرز الذي على القدر، ويزعجني صوت الجرس، فأفضل أن يحترق الطعام على أن تأتيني أحد محاضرات ذلك الرجل الذي صرت في هامشه. نبدأ الغداء بصمت كالعادة، أصوات احتكاك الملاعق هو السيمفونية الوحيدة التي تقطع علي رتابة أنفاس ذلك الجالس أمامي بصمت، ألقي أسئلتي التي تجابه بصمته ونظراته المتعالية فأعود لإنصاتي للغة الملاعق..أبتسم وأنا أواصل الإبحار في الذاكرة..

تهمس لي صديقتي رنيم في حفل التخرج من أنها قررت الالتحاق بقسم الطب فهي تشعر أنها ستبدع فيه، أما أنا فنتيجتي تحصرني في هامش الأقسام الأخرى، ترمقني الأستاذة عائشة بغبطة، ثم تأتي لتهنئني بالتخرج وتسألني عن المجال الذي سأدرسه في الفترة القادمة، ألتحف بصمتي...فيأتيني صوتها كفانوس في دهليز صمتي: أنت ابنة الكلمة..هلا احترفتها وأبحرت عبرها لشواطئك التي تنتظرك؟

كانت تلك الجملة مفتاحاً آخر أهدتنيه الأستاذة عائشة، وبالفعل قررت أن أكون صحفية، وبعد لأي وجهد استطعت أن أكون تلك الصحفية التي حلمتها، أبدأ بالإبحار إلى شواطئ الوطن الذي أجرمت في حقه يوم حشرته في الهامش، وأقرر أن أجعله عنواناً في صفحاتي القادمة، غير أني وفي أول قضية فساد أبحث فيها أحشر في السجن لأني تعديت الخطوط الحمراء، أتذكر أن الأستاذة عائشة لم تذكر هذا في جملها الطويلة، كانت تحذرنا من الهامش وحسب، ثم جاءت قضية مظلوم سعيت معه ليزج بنا معاً في السجن لأننا

تعدينا الخطوط الحمراء بمطالبتنا بحقه،وبمرور الوقت أدركت أن الكلمة في هذا الوطن هي خط أحمر ويجب أن تعيش على الهامش إذا ما أرادت الحياة..

قررت أن أكون معلمة مثل الأستاذة عائشة، ولكن جميع المدارس رفضتني لأن لي ملفاً تعدى الخطوط الحمراء..ووجدتني أعيش في الهامش! قررت أن أكون عنواناً من جديد في حياة أحدهم، ولكن جاءني أحدهم ممن يؤمنون بأن المرأة ليست سوى هامش، للأسف عرفت ذلك في وقت متأخر... وعندما شكوت لصديقتي رنيم: نصحتني بأن أحافظ على وجودي في الهامش بدل أن أسقط من الدفتر كله..

يلمح الذي يجلس إلى أمامي ابتسامتي المفاجأة، فيعلوا صوته فجأة: هل تأكلين...أم تضحكين!! تنحشر تلك اللقمة في حلقي وأواصل بلعها بصمت.. في المساء يأتيني صوته مزمجراً من جديد، إذا لم تأتي بأطفال نهاية هذا العام فسأضعك في الهامش.. أبتسم بمرارة وأنا أرقب مساء الوطن وأهمس له: إنه ليس خطأي وحسب...أنت أيضاً وضعتني في الهامش.